**المحاضرة الثالثة**

**الحالة الاقتصادية في العصر البويهي:**

كان الأمر الأساسي الذي يطيح الخلفاء والوزراء في أواخر العصر العباسي الثاني هو الأزمة المالية، وكان فراغ الخزينة علَّة مزمنة ينهار بسببها كل الجهاز الحاكم، وجاءت الفوضى التي ملأت عهد إمرة الأمراء، فزادت الخزينة فراغاً بسبب ما لحق بأرض السواد خاصة من تخريب. وجاء البويهيون فأبدى بعضهم كمعزّ الدولة وعضد الدولة رغبة صادقة في إصلاح نظام الري وتحسين شؤون الزراعة. ولكن إهمال الآخرين وقلة خبرة البويهيين بصورة عامة في الإدارة، وسوء تصرفات الجيش أضرت بالسكان وجعلت عصر البويهيين عصر تدهور مالي.

حاول معز الدولة القيام بعملين متعارضين: إصلاح نظام الري وإحياء موات الأرض من جهة، وإيجاد إقطاعات عسكرية زراعية من جهة أخرى، فكان هذا بداية قيام الإقطاع العسكري الذي سيتطور في العصر التالي ويصير أحد ركائز العمل الزراعي، وأدّى قيام الإقطاع العسكري إلى تحكم الجند بالأرض وبزراعتها، كما أنهم كانوا يستغلون كل موارد الأرض ولا يؤدون شيئاً يذكر لخزانة الدولة، فتعذَّر على معز الدولة جمع ذخيرة تكون للنوائب والأحداث.

وجاء [بختيار عز الدولة](https://marefa.org/index.php?title=%D8%A8%D8%AE%D8%AA%D9%8A%D8%A7%D8%B1_%D8%B9%D8%B2_%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9&action=edit&redlink=1) إلى الحكم دون خبرة بالسياسة والإدارة، بل اشتغل باللهو واللعب ومعاشرة المغنين والنساء، ولم يكن همه الأجمع المال اللازم لترفه وجنده، وكان لا ينظر في دخل ولا خرج إنما يلزم وزيره تسيير الأمور، ولكنه لا يعينه ولا ينصره، فإذا أخفق وزيره في توفير المال عُزل، ولذلك حدثت في عهده تبدلات وزارية سريعة. ولعلَّ البلاد ذاقت بعض الرفاهية في عهد عضد الدولة، فقد كان أقدر البويهيين الذين حكموا العراق وأبعدهم نظراً في السياسة والإدارة. بدأ عضد الدولة إصلاحاته الزراعية بإصلاح نظام الري وتنظيم الجباية، واهتم خاصة بإصلاح البثوق وكري أنهار أرض السواد وبناء القناطر على أفواهها لتنظيم مجرى الماء، ووضع الحرّاس في بعض النقاط الهامة لحراسة القنوات والسدود في الليل والنهار، وأضاف عضد الدولة إلى هذا مهمة إصلاح الجباية، فوضع لها نظاماً ثابتاً، وأخّر افتتاح الخراج إلى النيروز المعتضدي ليتفق ونضج الغلاّت، (وكان يؤخذ سابقاً قبل نضج الغلاّت) وألحَّ على العدل والإنصاف في الجباية، فأمضيت للرعية الرسوم الصحيحة وحذفت منها الزيادات، وشجع الزرَّاع على عرض مظلامهم ليرجع إليهم حقوقهم حتى من المقطعين العسكريين، وعني باختيار الأمناء للاهتمام بمصالح السواد وتحسينه.

كانت هذه الإصلاحات ممكنة في عهد عضد الدولة لقوته التي أرجعت الأمن وضبطت الجند ولرغبته الصادقة في تحسين الأوضاع، على أن الرفاهية لم تدم طويلاً، إذ عاد الشقاق بين البويهيين وسادت الفوضى بعد عضد الدولة، ولم يخلفه أحد له من اتساع الوقت والكفاية ما يستطيع به الاستمرار على إصلاحات سلفه، وإذا استثنيت بعض الإصلاحات من سد بثق نهر أو حفر قناة فإننا لا نكاد نسمع بعد عضد الدولة إلا الحديث عن الفقر والخراب، وتكرر فيضان دجلة الذي خرَّب الأرض والغلاّت لعدم تنظيم مياهه.

**شيوع المصادرات:**

فقد كان معز الدولة (334-356ه) أكثرهم نهبا للأموال عن طريق المصادرات خاصة، وبيع الوظائف الرسمية بما فيها الوظائف الشرعية مثل القضاءولا يتورع عن تضمين بعض الوظائف الشرعية لمن لا يستحقها ، فضمن القضاء لابن أبي الشوارب مقابل مائتي الف درهم سنويا ، كما ضمن الحسبة والشرطة ببغداد بعشرين الف درهم. وكذلك بختيار بن معز الدولة(356-367ه)، فلم يسلم احد من وزرائه وولاته وقواده من المصادرة والابتزاز حتى صادر الخليفة نفسه ، ورفع إلى مناصب عليا في الدولة أناسا أميين أو يكادون، بعضهم نشا بين اللصوص والعيارين مثل الوزير ابن بقيه. وقد أضحى للجند دور كبير وخطير لم يقف عند الجوانب السياسية ، وكان اشد في المجال الاقتصادي ، لان كثرة شغبه ومطالبته المادية ، وعجز الخزينة عن الاستجابة ، دفعت الأمراء البويهيين منذ المرحلة التأسيسية إلى إقطاعهم الأراضي بدلا من الرواتب استرضاء لهم ودفعا لشغبهم ، مما دفع إلى بروز الإقطاع العسكري.

وأما طبقة العامة والتي تشكل أكثر عددا من الخاصة وابعد عن الحصر ، لأنهم لفيف من أمم شتى ولا سيما في بغداد في أبان عمارتها ، وقد تقاطر اليها المرتزقون والمحترفون والمستجدون من أطراف المملكة الإسلامية ، بين صائغ وبائع وفيهم النبطي والفارسي والخراساني والتركي والسندي والرومي والبربري والزنجي ، الخ.

وقد ارتبط ظهور العوام بالوضع الطبقي والتقسيم الاجتماعي للعمل ، كما ارتبط بنمو المدن وتطورها ، إذ شكلوا اكثرية السكان في المدن . وقد خلقت الشروط المادية المزرية التي كانوا يعيشونها ، شعورا بالمصالح المشتركة فيما بينهم ، وذلك على الرغم من اختلاف عناصرهم الجنسية ومذاهبهم الدينية وخاصة في العاصمة بغداد ، كما اسهمت اللغة العربية التي كانوا جميعا يتكلمونها في تعزيز تضامنهم الطبقي.

وكانت الأغلبية الساحقة من سكان المجتمع العربي \_ الإسلامي في العصر العباسي، تقع في تبعية تامة للدولة الإقطاعية التي كانت تنفذ بلا كلل وظيفتها الأساسية وهي تعزيز سيادة الملاكين العقاريين واستثمارهم المرهق للفلاحين الفقراء والعبيد والعوام. وقد أدت الضرائب الثقيلة وشدة الاستغلال الاقطاعي وارتفاع الأسعار والغلاء والجوع وانتشار الامراض ووحشية الاستثمار العبودي والتعسف الحكومي الى ثورات الفلاحين والعبيد والعوام على حكم بني العباس، مما جعل النضال يتسم بصفاته الطبقية. ويكفينا ما ذكره التنوخي عمن روى له إنه "شاهد في وقت الغلاء الشديد الذي كان ببغداد ، ونواحيها ، في سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة، امرأة قد شوت ولدها ، وجلست تأكله ".

**دور المقاومة الشعبية في مواجهة التسلط البويهي/ العيارون والشطار:**

**زيادة الفتن وفقدان الامن.**

الشَّاطِرُ : هو الشخص الذي أعيا أهله خبثاً ، وقد شَطَرَ يَشطُرُ شَطَارَةً وشَطَرَ أيضاً من باب الظُرف، والعَيَّارُ ، كَشَدَّادٍ، وهو الرجل الكثير المجيء والذهاب في الأرض ، وقيل: هو الذكي الكثير التطواف والحركة، وقال ابن الأعرابي: والعرب تمدحُ بالعيار وتذم به، ويقال: غُلامٌ عيَّارٌ، نشيط في المعاصي، وغلام عَيَّارٌ: نشيطٌ في طاعة الله عَزَّ وجَلَّ. وربما سمي الأسد بالعَيَّارِ لتردده ومجيئه وذهابه فيالشَّاطِرُ: هو الشخص الذي أعيا أهله خبثاً، وقد شَطَرَ يَشطُرُ شَطَارَةً وشَطَرَ أيضاً من باب الظُرف، والعَيَّارُ ، كَشَدَّادٍ ، وهو الرجل الكثير المجيء والذهاب في الأرض، وقيل : هو الذكي الكثير التطواف والحركة ، وقال ابن الأعرابي: والعرب تمدحُ بالعيار وتذم به، ويقال: غُلامٌ عيَّارٌ، نشيط في المعاصي، وغلام عَيَّارٌ: نشيطٌ في طاعة الله عَزَّ وجَلَّ .

الشُّطَّار والعَيَّارين هُم عبارة عن تكتل اجتماعي ظهر في نهاية القرن الثاني للهجرة ، وبدا واضحاً منذ أحداث الصراع بين الخليفتين الأمين والمأمون، واستمر هذا الأثر يتصاعد في فترات الضعف السياسي، حتى شكل هؤلاء جزءً مهماً من الأحداث التاريخية لمدينة بغداد، في العصر العباسي امتد إلى القرن السادس للهجرة، فاختلف المؤرخين في مواقفهم من العيارين فمنهم من وصفهم باللصوصية مستنداً إلى أحداث السرقة والحرائق والفتن التي سببوها، وآخرين يجدونهم طائفة ظهرت بسبب التباين الاقتصادي وأن حركتهم موجهة ضد التجار وأهل اليسار.

والقصد أن العيارين وإخوانهم الشُّطَّار صَعاليك من جهة ، ودراويش من جهة أخرى، والصَّعاليك كلمة عربية أصلها صُعلوك، وهو الفقير المُغِيْرُ الفاتك، وقد اختصَّ بكلمة الصَّعاليك ذؤبان العرب ولصوصها في الجاهلية ومن هؤلاء الخُلعاء والأغربة والفقراء وغيرهم، وانسلخت كلمة شاطر عن معناها الاصطلاحي كصعلوك أو درويش وأصبحت تُطلق في مجال الإعجاب والإطراء .

وتوالت الأحداث والفتن التي سببها العيارين في ظل السيطرة الأجنبية، ففي سنة ( 332 هـ) ظهر العيَّار ( ابن حمدي ) الذي كان من عتاة العيارين، والذي أعيا السلطان أمره، فخلع عليه أمير الأمراء ابن شيرزاد وأمَّنَهُ، ووافق على أن يسدد له في كل شهر (15000 دينار ) مما يسرقه هو وأصحابه، فكان يستوفيها ويأخذ البراءات كإيصالات رسمية.

واستعان ابن شيرزاد ( أمير الأمراء ) بالشطار والعيارين، على حرب ( معز الدولة ) فكان يركب الماء ، وهم معه ويقاتل الديلم، ولم تنته هذه الحرب بنصر حاسم لأحد الطرفين، فجنح كلاهما للمصالحة، واستقر الصلح بينهما في سنة ( 335هـ) وهكذا اتحد العرب والأتراك والعيارون ضد بني بويه منذ الوهلة الأولى .

وفي سنة ( 348هـ) كان العامة والعيارون سبباً في امتداد حالة الحرب بين الناس حتى قُتل كثير من الخلق واحترق من البلد الكثير.

وفي سنة ( 361هـ) استغل الشطار والعيارين موقف السلطة البويهية من الاعتداءات المتكررة من جانب الروم على منطقة الحدود الجزرية والشامية، حيث شعروا بتمييع هذه السلطة لحركة الجهاد ضد البيزنطيين ففجروا الموقف ضد السلطة البويهية حتى اشتد خطرهم منذ أواخر سنة ( 362 هـ) وأصبحوا من الكثرة ببغداد بحيث إذا تحركوا ملكوا .

ويمكن تفسير زيادة عمليات النهب والسلب التي اقترفها العيارين في سنة ( 363هـ) كانت بسبب ندرة الطعام والأقوات في بغداد خلال الحصار الاقتصادي الذي فرضه عليهم ( الحمدانيون ) في الموصل ، وأعراب بني أسد وشيبان تنفيذاً لطلب ( ابن بختيار بن معز الدولة ) الذي كان قد استعان بابن عمه ( عضد الدولة ) في قتال الأتراك وقائدهم ( أفتكين )، أما العيارين فقد انحازوا إلى جانب الأتراك .

وذكر ابن تغري بردي في حوادث سنة ( 364 هـ): " فيها في المحرم أوقع العيارون ببغداد حريقاً من الخشابين إلى باب الصغير، فاحترق أكثر السوق، وهلك شيء كثير، واستفحل أمر العيارين ببغداد حتى ركبوا الجند وتلقبوا بالقواد وغلبوا على الأمور، وأخذوا الخِفارة عن الأسواق واالدروب، وكان فيهم أسود يقال له ( الزَّبَد ) كان يأوي قنطرة الزبد وكان يشحذ وهو عريان، ولما كثر الفساد رأى هذا الأسود من هو أضعف منه قد أخذ بالسيف فطلب الأسود سيفاً ونهب وأغار " .

وبرز من قوادهم في هذه السنة ( ابن كبرويه ، وأبو الدور ، وأبو الذياب ، وأسود الزبد – المذكور آنفاً – وأبو النوائح ) ونشطت حركة الشطار والعيارين خلال الأعوام من سنة ( 379 هـ - 380هـ ) في بغداد، وتحدوا سلطة البويهيين جهاراً نهاراً، وقتلوا من قاومهم، وتواترت سطوتهم وعملياتهم التي عُرفت في ذلك الوقت بالـ ( العملات والكبسات ).

واضمحل أمر الشطار والعيارين بفعل الشدة في سنة ( 381هـ ) فاطمئن الناس وقُبض على أحد زعمائهم وهو ( ابن الجومرد ) .

وفي حوادث سنة ( 384 هـ) يقول ابن الأثير : " وفيها اشتد أمر العيارين ببغداد ووقعت الفتنة بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة واحترق كثير من المحال ثم اصطلحوا ."

وفي نفس السنة ثار الشطار والعيارين بزعامة كبيرهم ( عزيز البابصري ) وطالبوا السلطة البويهية بإنصافهم وإنصاف الشعب وعندما شعر البويهيين بخطورة هذه الحركة جندوا طاقاتهم لقمعها ، وتصدوا لها بقوة ، ويبدو أن هذا الأمر دفع العيارين إلى تجميد نشاطهم بعد هذه الحملة القاسية عليهم ، وفي سنة ( 390هـ ) إستفاض سعار النهب ، والحرق والقتل ، وتدارك ( بهاء الدولة ) الموقف ، فاستناب على العراق ( أبا علي الحسن بن جعفر ) أستاذ ( هرمز بن الحسن ) الملقب بعميد الجيوش ، فأصلح الأمور وقمع المفسدين ، واستطاع بذلك أن يشل نشاط الشطار والعيارين بشكل مؤقت .

وفي نفس الوقت تطاول أمر العيارين على جماعة من الكبراء وهم في طريقهم على النهر ، لاستقبال بعض الملوك فطلع عليهم اللصوص ورموهم بالحراقات وشتموهم .

واستغل الشطار والعيارين الظروف المواتية لتحقيق أهدافهم، في مواصلة نشاطهم ، وذلك عندما بدأت علائم الضعف على السيطرة البويهية في بغداد سنة ( 408هـ ) فقاموا بمصادرة كثير من الأموال العائدة للبويهيين وأعوانهم، وفي سنة ( 409هـ ) واجه العيارون معاملة قاسية من ( أبي محمد بن سهلان ) الذي عينه سلطان الدولة ( واليا ) على العراق فنجح في تشتيتهم ونفى جزءاً منهم.

كما حدثت اضطرابات سنة (415 هـ) بسبب شدة الغلاء وتضرر الناس. وازداد نشاطهم بشكل واضح في سنة ( 416هـ ) إذ استهانوا بالسلطة البويهية، وبالغوا في التحدي السافر والاستهانة حتى أنهم كانوا يسيرون ليلاً بالمشاعل والشموع، وبلغ من تحديهم أنهم نهبوا خزائن الحاكم البويهي ( مشرف الدولة ). وقوي أمر العيارين في عهد ( جلال الدولة أبي طاهر المعتز بن بهاء الدولة ) سنة ( 416هـ ) ولاسيما في النصف الأول من إمارته وترأسهم ربما للمرة الأولى رجل عربي فاتك من قبيلة ( تميم ) النازلة بالبصرة، إسمه ( أبو علي البرجمي ) الذي عُرف بشدته وشدة أصحابه، وكان على ما يظهر يحمل لقب متقدم ( درجة قائد ) ورغم ما يُحكى عن سطوة هذا القائد وفتكاته ، إلا أنه كان مع هذا فيه فتوة ، وله مرؤةٌ ، فلم يتعرض لامرأةٍ ، ولا إلى من يستسلم إليه وإن كان قد أسرف في نهب الأموال .

اما في سنة (417 هـ) ازدادت مشاكل الاتراك وتسلطوا على الناس في مصادراتهم لأموال الناس, وبلغ فيهم الطغيان ان فرضوا على اهل الكرخ 100,000 الف دينار وعظم الخطب واحترقت المنازل والاسواق.

وفي ليلة السبت سنة ( 421هـ ) كبس جماعة من العيارين يزيدون على خمسين رجلاً على أناس بنهر الدجاج فقتلوهم وأحرقوا الدار ولم يتجاسر أحد من الجيران أن يُنذر بهم خوفاً منهم، وفي هذا الشهر كثرت ( العملات والكبسات ) في الجانب الشرقي من العيار المعروف بالبُرْجُمي ( متقدم العيارين ) ووصل إلى عدة مخازن ومنازل وأخذ منها شيئاً كثيراً واستمر ذلك ولقي الناس منه أمراً عظيماً .

وتصاعد خطر العيارين بقيادة ( أبي يعلى الموصلي ) الذي اتخذ مقراً له خارج بغداد، فهاجم رجالات الشرطة في بغداد، وقتل بعضهم، وهو يحمل السيوف المسلولة مع رجاله، فاضطر رجال الجيش البويهي إلى نقل خيولهم إلى دورهم، كما نقل الحاكم البويهي ( جلال الدولة ) دوابه إلى داخل دار المملكة، وظل أبي يعلى هذا خارجاً على الحكومة مدة تقرب من ثلاث سنين كان يشن خلالها الهجمات ، وفي إحدى الهجمات قُتل .

وفي حوادث سنة ( 422هـ) في ليلة الخميس ثالث محرم، نقب قوم من الشطار على دار المملكة فأفضوا إلى حجرة الحرم وأخذوا منها شيئاً من الثياب ونُذِرَ بهم فهربوا ورُتِّبَ بعد ذلك حرس يطوفون حول الدار كل في كل ليلة .

وعندما أرادت السلطات أن تضع حداً لتحدي البرجمي لها ، قام الوزير البويهي بمطاردته وعهد إلى ( محمد ابن النسوي ) رئيس الشرطة بتلك المطاردة ، وقلده النظر في المعونة ومنحه لقب الناصح، واستحجب وخلع عليه، فاستدعى جماعة من العيارين فأقامهم أعواناً، وأصحاب مسالح، ليُغري بقية العيارين بالتخلي عن البرجمي ، لكن ما أن قُتل أحد أصحاب النسوي حتى هرب هو نفسه وترك بغداد تحت سيطرة البرجمي، وبلغ مداه، حتى ثار العامة بالخطيب عند خطبة الجمعة في جامع الرُّصافة، ومنعوه من إكمال خطبته، ورجموا القاضي ( أبا الحسين العريف الخطيب ) وقالوا له : إما أن تخطب للبرجمي وإلا فلا تخطب لخليفة ولا لسلطان ولا لغيره ، وبلغ الأمر بسكان بغداد ، أنهم لم يجرئوا على أن يلفظوا اسم البرجمي الصريح ، بل كانوا يكنونه بالقائد ( أبي علي ) وصارت له من الهيبة والنفوذ ماجعل عمال السلطة البويهية يلتزمون بأوامره ، وصار يقف على قدم المساواة مع الخليفة العباسي والوزير البويهي .

وثار أهل الكرخ بالعيارين وطلبوهم فهربوا ، فكبسوا دورهم ونهبوا سلاحهم وراسلوا السلطان ليعاونهم عليهم ، وكان سبب ذلك أن العيارين دخلوا ليلاً على أحد التجار فأخذوا ماله فتعصب له أهل سوقه، فرد العيارين بعض ما أخذوا ، ثم كبسوا في ليلة دار ( ابن الفلو الواعظ ) بدار القطن من نهر طابق فأخذوا ماله .

وخرج جماعة من القواد في طلب البرجمي، فنزلوا الأجمة التي كان يأوي إليها وهي أجمة ذات قصب وماء كثير تمتد خمسة فراسخ، وفي وسطها تل قد جعله معقلاً ومنزلاً، فخرج عليهم البرجمي وقال لهم : من العجب خروجكم إلي وأنا كل ليلة عندكم ، وإن شئتم أن ترجعوا وأدخل عليكم فعلت، وإن شئتم أن تدخلوا إلي فافعلوا ، فذُكر أن قوماً منهم راسلوه وأقروا نفسه واروه انهم يردُّون العسكر عنه .

أُصيب الشطار والعيارين بنكسة كبيرة سنة ( 425هـ) وذلك عندما وقع ( البرجمي ) في براثن ( قرواش ) أمير بني عقل، في شرك نصبه له على مايبدو ( جلال الدولة البويهي )، حيث أن قرواشاً قبض على عامله على مدينة عكبر بشرقي دجلة في شمال بغداد، ويُدعى ( ابن القلعي ) فجاء البرجمي يتشفع في إطلاقه ، لمودة كانت بينهما ، فغدر به واعتقله وافتدى البرجمي نفسه بمال كثير فأخذ قرواش الفدية وأغرقه بدل أن يطلق سراحه ، وقد حاولت السلطة البويهية استثمار مقتل البرجمي لتفتيت حركة العيارين فأصدرت أمر الأمان لهم ، ودعتهم للتفاوض ، وطُلب منهم الانخراط في مؤسسات السلطة أو الخروج من البلد ، فخرجوا مؤقتاً ، ثم عادوا إلى نشاطهم واستهدفوا ( محمد بن النسوي ) الذي كان قد أُعيد إلى منصبه ، فاقتحم مائة من العيارين داره وأحرقوها وأجبروه على الإستقالة .

وفي سنة ( 443 هـ ) هاجم العيارين ابا محمد النسوي وجرحوه جراحات ، وفي سنة ( 444هـ) زادت الفتن بين المذاهب .

ونلخص مما سبق أن العيارين أرهبوا بغداد بشطارتهم ، وفرضوا سيطرتهم عليها ، وداخلوا الشرطة كأعوان وأصحاب مسالح ، وظهر منهم زعماء كبار ، واستعان الأتراك بهم في بعض الأحايين في غزو الروم .